قراءة في صفحة من صفحات تاريخ اليمن

الملك الناصر في الميزان

السلطان الملك الناصر أحمد إسماعيل الأشرف أحد سلاطين وملوك الدولة الرسولية التي حكمت اليمن قرابة أكثر من مائتي عام (٦٢٦ ـ ٨٥٨ هـ / ١٢٢٨ ـ ١٤٥٤م) . وبالرغم أنه جلس على سرير المُلك زهاء ٢٤ عاما(٨٠٣ ـ ٨٢٧ هـ/ ١٤٠٠ ــ ١٤٢٤ م) إلا أن سيرته مازال يلفها الكثير من غيوم الغموض الكثيفة أو قل يشوبها الاضطراب الشديد والتناقضات الحادة فبعض المؤرخين يضعه في مصاف أعظم الملوك الذين ظهروا على مسرح اليمن السياسي وعلى وجه التحديد في عهد الدولة الرسولية. والبعض الآخر من المؤرخين ينعته بأوصاف سلبية تخرجه من ملة الإسلام من ناحية وتصفه أيضاً أنه كان مستبداً جباراً على رعيته من ناحية أخرى .

محمد زكريا

دراسة سعودية قيمة

ولكن استطاع باحث سعودي أن يرفع الستار عن شخصية السلطان الملك الناصر أحمد الأشرف ودوره الهام في إدارة شؤون الحكم ،وإعادة هيبة وقوة الدولة اللتين افتقدتهما منذ فترة ليست بقصيرة حيث تلاعبت بها الأهواء الشخصية ، وتقاذفتها الأطماع السياسية . والحقيقة لقد رسم الباحث السعودي الأستاذ محمد بن يحيى الفيفي صورة كاملة عن مسرح الأحداث السياسية الذي كان بطلها السلطان الناصر ،الذي كان الشطر الأول من حكمه وهو قرابة عقد من الزمن في مرحلة مواجهة مع حركات التمرد والثورة أو القوى السياسية المناوئة له التي أطلت برأسها في الكثير من مناطق اليمن وأخطرها قضية الأئمة الزيدية ،والقبائل الأخرى التي انتفضت في تهامة والمعروفة برباطة الجأش ، وصعوبة المراس فضلا عن الصراع الداخلي في البيت الرسولي أو بمعنى أدق حرب الرسوليين ـ الرسوليين والمتمثلة بشق أخيه الحسن الأشرف عصا الطاعة في وجه أخيه الملك الناصر . وبالرغم من تلك الصورة المليئة بالأحداث الجسام الملتهبة ، والأمور العظام الدموية .

مع حرية الفكر

والحقيقة أن السلطان الملك الناصر أحمد الأشرف في خلال فترة حكمه الذي امتد ـ كما قلنا سابقا ــ ٢٤ عاما لم يهدأ ويستكين بل كان جذوة متقدة من النشاط والحركة . ولقد أجمعت الروايات التاريخية أنه كان يتحلى بالشجاعة الهادئة ، والحكمة السياسية العميقة ، والحنكة العسكرية الكبيرة . ويتعجب المرء وهو يتنقل في قراءة سطور صفحات سيرة السلطان الناصر الممتلئة بالأحداث الخطيرة التي ما تلبث أن تهدأ حتى تثور مرة أخرى وأقوى مما كانت عليه في السابق أن يجد ذلك السلطان الشغوف بالعلوم والمعارف فسحة من الوقت ليقرأ ، ويطلع على المصنفات التي ظهرت في عصره وقتئذ . وكيف كان ويترك حرية الفكر للآخرين بصورة تدعوا إلى الإعجاب ودليل ذلك الصراع الفكري بين الفقهاء والصوفية وكيف تمخض عن ذلك المنصفات العديدة والقيمة لهؤلاء وأولئك وكان من ثمراتها الطيبة أن ساد مناخاً ثقافياً رائعاً في اليمن وبالرغم أن السلطان الناصر كان صوفي الهوى إلا أنه لم يتدخل إلا عندما تحول ذلك الصراع الفكري إلى صراع مسلح بين الطرفين فتدخل البلاد في دوامة البلبلة والقلاقل .

تعز قبلة العلماء

ولقد شجع النهضة الفكرية تشجيعا كبيراً حيث منح الجوائز والعطايا الثمينة إلى العلماء في مختلف فروع تخصصهم وفنونهم ،وصارت تعز حاضرة اليمن وعاصمة الدولة الرسولية إشعاع ثقافي و قبلة العلماء والمفكرين وكانوا يتوافدون إليها من كل مكان للإفادة والاستفادة في نفس الوقت . ولم يقتصر أعماله على ذلك بل تعدت إلى تشييد المدارس الإسلامية ،وترميم وإصلاح المدارس الإسلامية الأخرى التي امتدت إليها يد غوائل الزمن والإهمال علاوة على بناء المساجد أو ترميمها وإصلاحها وتوسيعها أو بعبارة أخرى لقد أهتم اهتماما بالغاً بالمنشآت الدينية الإسلامية . كل تلك الصور والمشاهد عن السلطان الملك الناصر سنراها رأي العين في كتاب ((الدولة الرسولية في اليمن)) لصاحبه الباحث السعودي الأستاذ محمد بن يحيى الفيفي الذي أخرج لنا مصنفا رائعاً تميز بالشرح ، والتفسير ، والتحليل العميق ، فسد فراغاً كبيراً في رفوف المكتبة التاريخية اليمنية في صفحة من صفحات تاريخ الدولة الرسولية .

مولده و نشأته

يصف محمد بن يحيى الفيفي شجرة أسرة الملك الناصر ،فيقول : " هو السلطان الناصر أحمد بن إسماعيل بن عباس بن علي بن داود بن عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول ". والغريب في الأمر ، أن السلطان الناصر لم يعثر له على سنة ولادته ، وكم كان عمره عندما تولى الحكم بعد وفاة والده الأشرف ،والحقيقة أن المصادر اليمنية والمصادر الرسولية لم تسعفنا في الإجابة على تلك المسألتين . ولكن هناك صورة يشوبها عدم الدقة والوضوح . فالمؤرخ الأهدل يقول أن السلطان الناصر جلس على عرش الحكم و هو شاب أو مقتبل العمر وهذه صورة عامة يصعب على الباحثين تحديد عمره بدقة عندما تسلم مقاليد الحكم بعد وفاة والده السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس المتوفى بتعز سنة (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) ــ كما قلنا سابقا ــ . و يعثر محمد الفيفي سنة تاريخ مولده عند المؤرخ المقريزي ، فيقول : " ... ذكر المقريزي أن مولده كان في ليلة السبت الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) ، أي في مساء اليوم الذي تمت فيه البيعة لوالده بالحكم" .

مع والده

ومن أجل الاقتراب من المؤثرات المباشرة وغير المباشرة التي أثرت في تكوين وتشكيل شخصية السلطان الملك الناصر أحمد . نجد أن والدته تحتل مساحة كبيرة في تكوين شخصيته وخاصة في حياته الثقافية وكذلك العناية بالرعية وخدمتهم . فقد غرست في نفسه منذ كان شابا يانعا بذور حب العلوم والمعرفة والاهتمام بكل ما يرتبط بها من ناحية والعمل على توفير سبل الراحة للناس من ناحية أخرى . فقد وصفتها المصادر ــ أن اسمها كان الجهة المعتبية ــ . فقد " ... كانت امرأة عفيفة كريمة تفعل الخير كثيرا . ولها العديد من المآثر الحسنة ، أبرزها المدرسة المعتبية في مدينة تعز ، رتبت فيها مؤذنا وقيما ومدرسا وفيها طلبة ومعلم أيتام يتعلمون القرآن ، وأوقفت عليها أوقافا عدة تكفيها . ولها عدة سبل في مقاطع الطرق يردها السارح والرائح ، كما كانت تأمر بإصلاح الطرق والمدرجات والعقبات وما يتضرر به المارون من الشجر وغيرها . وكانت وفاتها في مدينة زبيد في الثامن عشر من شهر صفر سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) " . ومن البديهي أن والدته المحبة للثقافة الإسلامية أثرت في تكوين ثقافة والدها الناصر تأثيرا عميقا وهذا ما لمسناه في تشييده العديد من المدارس الإسلامية أو المنشآت الدينية الإسلامية ، والعناية الكبيرة بالعلم والعلماء والفقهاء والمفكرين . وكيف صارت تعز في عهده قبلة العلماء والفقهاء والمفكرين النوابغ في داخل اليمن وخارجها ــ كما مر بنا سابقا ــ وبالرغم أن الباحث محمد الفيفي لم يقل ذلك ولكن الصورة الذي عرضها عن والدة السلطان الناصر تعطي ذلك الانطباع الواضح بأنه كان لوالدته دوراً كبيراً في تكوين شخصيته الثقافية من جهة والرأفة بالرعية من جهة أخرى . وبعبارة أخرى عملته بصورة مباشرة أن منهج الحكم الذي يجب ويتوجب أن يسلكه مع العامة من الناس .

مع والده

وعن المؤثرات الأخرى التي أثرت في تكوين السلطان الناصر الفكري أو الثقافي بل والسياسي والعسكري بصفة خاصة . فقد رسم محمد الفيفي صورة تقريبية عن الحياة الذي كان يعيشها في البلاط الملكي وهي بأنه كان يعيش في وسط أجواء ثقافية رفيعة المستوى وبالرغم من عدم وجود المصادر التي تمده بمعلومات واضحة وجلية عن الحياة الثقافية الذي عاشها السلطان الناصر في ظلال والده السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس الذي كان أحب أبنائه إلى قلبه. فيذكر ، قائلا : " ولكن من المرجح أنه نشأ نشأة خاصة امتزجت فيها الحياة العلمية والأدبية بالحياتين السياسية والعسكرية ، كما جرت به العادة لمن هم في وضعه من أبناء الملوك والسلاطين ، فضلا عن كونه أحب أبناء أبيه إليه وأيمنهم عليه " . ونستشف من ما قاله الباحث محمد الفيفي أن الناصر أحمد ظهرت عليه النجابة والفطنة وهو في سن مبكر . وهذا ما لفت إليه والدته ، فقربه إليه ليتولى مقاليد السلطنة من بعده ، فعمل على صقله بالعلوم والمعرفة وتلقينه فنون الرئاسة والحكم .

اللبنة الأولى

ونستشف من ذلك أن اللبنة أو اللبنات الأولى في تكوين شخصية السلطان الناصر هي والدته ووالده ــ كما قلنا سابقاً ـ والتي تشربت روحه بشخصيتهما المتمثلة باحترامهما للعلوم والمعارف من ناحية أخرى . وكان من البديهي أن تلك القيم والمبادئ القيمة اللذين غرستهما والديه في نفسه الصغيرة أن تنمو روحه شيئا فشيئا على حب الحياة الثقافية وتقديرها لها . وعندما آلت إليه أمور السلطنة ، كانت من أبرز أوجه نشاطه هو تشجيعه للعلوم والمعارف ،وإغداقه الأموال الطائلة والعطايا الثمينة للعلماء والمفكرين ، وأرباب الأدب بفروعه المتباينة . والجدير بالذكر أن والده كان دائما بجانبه ،وكان في كثير من الأحيان يصحبه إلى ميادين القتال ليتمرس على فنون القتال من ناحية ويتعلم أيضا أمور تدبير الحكم و السياسة من ناحية أخرى .

من أسباب نجاح الحاكم

والحقيقة أن والده إسماعيل الأشرف اهتم اهتماما كبيرا بابنه الناصر ــ كما أشرنا سابقا ــ ، فالمصادر التاريخية تصف العناية الفائقة الذي بذلها والده الملك إسماعيل الأشرف لأبنه الناصر أحمد ومن أجل ذلك فقد عين له عدد من الفقهاء الكبار لتدريس ابنه العلوم والمعارف التي تدفع ابنه إلى التقدم والرقي في سلم الثقافة . وربما كانت الثقافة تعني شيئا أساسيا لدى الحكام الرسوليين وهي أنها جزءا لا يتجزأ من نسيج الحكم أو بعبارة العظام التي لا تحتمل فلا يغضب لها " وينقل الباحث محمد الفيفي عن المؤرخ ابن الديبع ، فيقول : " وقال ابن الديبع قريبا من ذلك حيث يقول : " إنه كان موصوفا بالكرم الجم والحلم التام ، يرفع إليه ما لا تحتمله الملوك فلا يستفزه غضبه " . ويحلل محمد الفيفي الأسباب وراء تلك الأقوال والآراء المتناقضة المتباينة الحادة في وصف السلطان الملك الناصر في إبان حكمه ، بقوله : " ولعل السبب في هذا التباين بين المصادر وتحامل بعضها عليه ، يرجع إلى تقريبه للصوفية ، وميله إليهم في بعض الأحيان ، وأخذه الخارجين عليه بالشدة والعنف ، في سبيل توفير الأمن والاستقرار في البلاد " .

الدولة الرسولية والصوفية

وهناك ملاحظة أوردها الأستاذ محمد الفيفي أنه من الأسباب الرئيسة التي دفعت خصوم والقوى السياسية المحلية إلى نقد السلطان الناصر هو ميله إلى الصوفية ورعايته وحمايته لهم تعود في الحقيقة إلى أن السلاطين والملوك الرسوليين منذ أن بزغ نجم دولتهم في سماء اليمن السياسي كان يتبعون سياسة كسب مشايخ الصوفية إلى صفوفهم . وفي الواقع أن السلاطين والملوك من الرسوليين كانوا يقتفون أثر أسيادهم من سلاطين وملوك الدولة الأيوبية وكان على رأسهم السلطان صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية في مصر والشام والمتوفى بدمشق سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م الذي اهتم بالصوفية ومشايخها اهتماما كبيرا في أثناء حروبه ضد الفرنج الصليبيين من ناحية والعمل على أحياء المذهب السني لمحو آثار الفاطميين الشيعة في مصر من ناحية أخرى . وهذا مؤسس الدولة الرسولية السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول المقتول بالجند بتعز سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٥٠م) كان دائماً يعمل على خطب ود كبار مشايخ الطرق الصوفية في سلطنته . ولقد وثق علاقته بهم توثيقا قويا لكونهم لعبوا دورا كبيرا في أذاعت إرهاصات بين الناس بظهور نجمه في سماء اليمن السياسي ، وأنه سيشيد دولة مهيبة الأركان عظيمة البنيان ينشر فيها العدل والرخاء. وفي هذا يقول المؤرخ محمد عبد الله الحبشي : " ولعل بداية تاريخ الصوفية مع الرسوليين يبتدئ ببداية هذه الدول بل قبل البداية بسنوات عدة ، فالمؤرخون يذكرون تلك الصداقة الوطيدة بين مؤسس الدولة الرسولية الملك المنصور عمر بن علي بن رسول(حكمه من ٦٢٩ ــ ٦٤٧ هـ) وبين الفقيه الصوفي محمد بن أبي بكر الحكمي المتوفى سنة ٦١٧ هـ ،وصاحبه الصوفي محمد بن حسين البجلي المتوفى سنة ٦٢١ هـ ، وهما من كبار الصوفية في اليمن " . ويضيف محمد الحبشي ، فيقول : " ويقال أنهما اللذان قويا عزمه في الاستيلاء على الحكم بعد مشاهدتهما تضعضع الدولة الأيوبية ، وتنافس أمرائها فيما بينهم على الحكم ".

تثبيت هيبة الدولة

وكيفما كان الأمر ، فقد اختفى والده السلطان الملك الأشرف عن مسرح اليمن السياسي ، وتولى بعد ابنه السلطان الناصر الذي كان قد أعده لتولية حكم اليمن من بعده ــ كما مر بنا سابقا ــ . ولم يكد السلطان الشاب الناصر يجلس على سرير السلطنة حتى أطلت برأسها حركات التمرد ، والثورة على السلطنة . والحقيقة أن السلطان الناصر أثبت جدارة عسكرية فائقة في مواجهة شق عصا الطاعة في وجه السلطنة . فعمل بسرعة فائقة على إخمادها وبطريقة عنيفة حتى تكون عبرة للقبائل الأخرى أو بمعنى آخر قبل أن يستفحل أمرها ، ويصعب وأدها ،فقتل وشرد وزج الكثير من المتمردين في غياهب السجون ،وأباح لجنده نهب وسلب قراهم ومناطقهم بل وصل الأمر أن اسمل عين أخيه الحسن الأشرف . وربما كان ذلك من أهم الأسباب التي جعلت بعض المؤرخين اليمنيين أمثال الأهدل يصفه بالجور والفجور .

مرحلة الاستقرار والازدهار

الحقيقة أن حكم السلطان الناصر أحمد مر بمرحلتين المرحلة الأولى استمرت تقريبا عشرة سنوات قام في خلالها بالقضاء على حركات التمرد ، والثورات التي اندلعت في كثير من مناطق اليمن . ومن أجل أن نتعرف عن كثب على الجهود الجبارة الذي بذلها السلطان الناصر في وأدها . فقد ثارت عليه قبائل شديد البأس وصعبة المراس في المناطق المحيطة بتعز أو القريبة منها مثل الجند ، وفي تهامة ثارت عدد من القبائل ،وكان كلما يطفئ نارها ، تشتعل بقوة مرة أخرى . وأما من أهم الأخطار الذي واجها السلطان الناصر هي القوى الزيدية التي كانت تتربص وتترصد بالسلطنة لإشعال نار الفتنة فيها والعمل على زعزعة أركانها ولكنه استطاع بحنكته السياسية ودرايته الواسعة في القتال أن يقوض قوتها . ومن مظاهر درايته العميقة في فنون القتال هي أنه ارتأى أن حركات التمرد ، والثورة تتخذ من الحصون والقلاع التي تطفو على رؤوس الجبال مراكز انطلاق لإشعال القلاقل ، والاضطراب في كثير من مناطق سلطنته ، فصمم على الاستيلاء عليها . وفي هذا يقول محمد الفيفي : " ويبدو أن الناصر قد لاحظ أن المخالفين يعتصمون بالحصون والجبال المنيعة ، كلما هاجمتهم جيوش الدولة ، مما يجعل عملية إخضاعهم والحد من خطورتهم عملية عسيرة ،ولهذا فقد وجه اهتمامه للاستيلاء على الحصون والجبال ... " . وبالفعل استطاع السلطان الملك الناصر أحمد أن ينجح في القضاء على تلك الثورات التي كانت تنطلق من قمم رؤوس الجبال بالاستيلاء عليها .

لحج ودثينة في وجه السلطان

وتذكر المصادر التاريخية أنه اندلعت في لحج ودثينة حركات تمرد وثورات كادت تطيح بهيبة السلطنة . وكانت قاب قوسين أوأدني أن تستولي على عدن الشريان الاقتصادي الذي كان يمد السلطنة بالأموال الطائلة ، ونظرا لخطورة الموقف . فقد سار السلطان الناصر بنفسه للقضاء على القلاقل والفتن التي انفجرت في لحج ، ودثينة . بعد أن تولى سدة الحكم بخمس سنوات . وفي هذا يقول الباحث محمد الفيفي : " فلما كانت سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، ثارت قبيلة الجحافل ، وقطعت الطرق ، ونهبت القوافل ، تسبب في انقطاع الواردات عنها ، وأخيرا تمكنت من قتل عاملي السلطان عندما خرجا للتصدي لها ... فلم علم السلطان بما حدث ، سار بنفسه إلى المنطقة ،وقضى على الثورة ، واستولى على مدينة دثينة ونهب ما فيها ... فسكنت الأمور فيها بعد ذلك " . ويعقب محمد الفيفي على المرحلة الأولى من حكم السلطان الناصر والتي استغرقت عشر سنوات ، فيقول : " وهكذا تمكن السلطان الناصر ، بعد نضال استمر حوالي عشر سنوات ، من بسط نفوذه على أقاليم الدولة المختلفة " ويعلل الأستاذ محمد الفيفي السبب الرئيس الذي مكن السلطان الناصر في سرعة وأد حركات التمرد ، والثورة ، والقلاقل التي استشرت في أقاليم ومناطق سلطنته في بداية عهد حكمه،فيقول : " وكان لتنقلاته المستمرة في أنحاء البلاد ، لتفقد الأوضاع ، والتصدي لأي خلاف يسمع به ، دور مهم في استقرار الأمن ــ بشكل عام ــ في السنوات اللاحقة " .

وعلى أية حال ، تمكن السلطان الشاب الناصر بعد عشر سنوات من الحروب الدامية ، أن يخضع رقاب القبائل الصعبة المراس إلى مشيئة حكمه ،وتلك المرحلة ـ كما قلنا سابقا ــ تعد المرحلة الأولى في تدعيم نفوذ سلطنته ،وبعدها انطلقت سلطنته إلى آفاق الأمن والأمان والاستقرار السياسي الواسع ، والازدهار الاقتصادي العريض .

مرحلة الاستقرار والازدهار

وبعد أن استطاع السلطان الناصر تقويض حركات التمرد والثورة والاضطراب في سلطنته والتي استمرت تقريبا عشر سنوات ــ كما مر بنا سابقا ــ . بعدها بدأت مرحلة الاستقرار والأمن والرخاء تنشر رداءها في كل مكان من سلطنته ــ على حد قول المؤرخين ــ . وربما كان هنا مناسبا أن نقتبس فقرة من كلام الباحث محمد يحيى الفيفي حول المرحلة الثانية أو الأخير وهي مرحلة الاستقرار السياسي من حكم السلطان الناصر ، إذ يقول : " يتضح مما سبق أن السلطان الناصر قد عمل على استعادة نفوذ الدولة وهيبتها اللذين كانتا قد افتقدتهما في معظم البلاد ، عند استقراره في الحكم . فاستطاع خلال السنوات العشر الأولى من حكمه أن يبسط نفوذه على معظم المناطق الرئيسة في البلاد ، وأن يقضي على كثير من بؤر التوتر التي طالما استعصت على أغلب من سبقه ثم تلا ذلك فترة هدوء نسبية ، تمكن من خلالها من تثبيت نفوذه في المناطق التي كان قد سيطر عليها ، بالإضافة إلى متابعته الاستيلاء على بعض الجبال ،والحصون المهمة التي لم يكن قد وصل إليها من قبل ". ويمضي في حديثه ، قائلا : " ثم أعقب ذلك فترة هدوء واستقرار ـ بشكل عام ـ أصبح السلطان خلالها هو صاحب الكلمة النافذة في البلاد ، وأذعن فيها كثير من المخالفين ، وبعثوا ما كانت تطلبه الدولة منهم : كتعبير عن الولاء وحسن النوايا إلى العاصمة لا سيما الجنود والأموال السنوية . وامتدت هذه الفترة حتى وفاته سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) "

علاقات خارجية مزدهرة

ومثلما شهدت السلطنة الاستقرار السياسي شهدت كذلك علاقات خارجية مزدهرة مع القوى الإفريقية والآسيوية وبمعنى أوسع لقد كان للسلطنة حضوراً واضحاً ومتميزاً حينئذ على خريطة السياسة الخارجية . والحقيقة ما كانت علاقات السلطنة توطدت مع البلدان الإفريقية ، والآسيوية لولا الاستقرار السياسي الذي رسخه السلطان الناصر في داخل سلطنته ـ كما قلنا سابقا ــ . وكيفما كان الأمر ، فقد ارتبطت السلطنة ارتباطا واسعا وعميقا مع المماليك في مصر ، والحبشة ، والممالك الإسلامية التي طفت على طول الشريط الساحلي المحاذي للبحر الأحمر والتي عرفت في المصادر التاريخية بـ ((ممالك الطراز الإسلامي)) . ومع الهند ومع الصين أيضا حيث كان العلاقة بين اليمن والصين في عهد السلطان الناصر علاقة تجارية قوية حيث شهد ميناء عدن أسطول تجاري صيني ضخم .وذلك بعد أن أتبع الإمبراطور الصيني زينغ زو (Zheng zhou) سياسة خارجية منفتحة على بلدان العالم وقتئذ ومنها اليمن في عهد السلطان الناصر. وفي هذا ، يقول محمد يحيى الفيفي : " مما نتج عنه استئناف المراكب الصينية إبحارها إلى الموانئ اليمنية بعد أن كانت قد توقفت عن ذلك منذ أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، فتوثقت العلاقات بين الدولتين أكثر من أي وقت مضى ، وتبادلتا السفارات والهدايا عدة مرات " .

مع الهند

تميزت العلاقة اليمنية الهندية في عهد الدولة الرسولية بعلاقة وثيقة وقوية وخصوصا في عهد مؤسس الدولة الرسولية السلطان الملك المنصور عمر بن علي ابن الرسول وابنه السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي رسول وكذلك في عهد حكم السلطان الأفضل المتوفى بزبيد سنة (٧٧٨ هـ / ١٣٨٦ م) ، والسلطان الملك الأشرف . ولقد أرسل ملوك الهند الرسل إلى بلاط سلاطين وملوك الدولة الرسولية بالهداية الفاخرة دليل على حسن العلاقة بينهما . وفي هذا يقول ، محمد الفيفي : " ولهذا ، فقد توافدت رسلها بالهدايا الجليلة على البلاط الرسولي منذ عهد السلطان المنصور عمر بن رسول . حيث وصل إليه رسول من صاحب الهند قبل وفاته بأيام قليلة ثم تكررت العملية نفسها في عهد السلطان المظفر ، والسلطان الأفضل ، والسلطان الأشرف إسماعيل ". وعلى أية حال ، فقد أشارت المصادر التراثية إلى سفارة هندية قدمت من أحدى الولايات الهندية وهي كنبانية المطلة على ساحل الهند الشرقي . وقيل أنها كانت في سنة (٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م). " وقد جاء بها رسول يدعى الناخوذة ((ناصة)) ، وهي عبارة عن بعض التحف ، والأطياب ، والملابس ، والفرش وإلى ما ذلك ".

في أواخر حكمه

والملفت للنظر ، أن تلك السفارة الهندية وصلت إلى البلاط الملكي في أواخر حكم السلطان الناصر الرسولي أي في نفس السنة الذي توفى فيها . ومن المحتمل أن الأوضاع السياسية كانت في أواخر حكم السلطان الناصر قلقة أو بعبارة أوسع أن حركات التمرد بدأت تطل برأسها من جديد على السلطنة فلم يتمكن المؤرخين المعاصرين فرصة تدوين تاريخ العلاقة اليمنية الهندية في أواخر عهد السلطان الناصر بصورة مستفيضة ودقيقة .

هل ظلمه التاريخ ؟

والحقيقة أن السلطان الناصر على مدى أكثر من ٢٤ عاما ــ كما مر بنا سابقاــ استطاع أن يوطد الأمن ، وينشر الاستقرار السياسي ، ويحقق الازدهار الاقتصادي ، ويمد جسور العلاقات الخارجية مع كثير من الدول المجاورة له والبعيدة منه ويعيد هيبة الدولة في كل مكان من اليمن ، بعد أن قوض أركان حركات التمرد ، والثورة ، ونزع فتيل نار الفتنة والقلاقل ، فانساقت له القبائل في طول وعرض وارتفاع اليمن ــ كما سبق وأن اشرنا ــ . وفي هذا يقول المؤرخ الباحث الأستاذ محمد بن يحيى الفيفي : " ظل السلطان الناصر قائما بأمور المملكة ـ كما يقول ابن الديبع ــ حافظا لها في التهائم والجبال حتى انتهت مدته ، ووافته منيته في حصن الفص (بالقرب من زبيد) ، وذلك في يوم الاثنين السادس عشر من شهر جمادي الآخرة أحد شهور سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) بعد فترة حكم امتدت ربع قرن إلا ثمانية أشهر ، وتم دفنه بجوار والده بالمدرسة الأشرفية في مدينة تعز " . وبغيابه عن المسرح السياسي ، يسدل الستار عن أعظم سلاطين وملوك الدولة الرسولية إن لم يكن أعظمهم إطلاقا الذين حكموا اليمن .

والسؤال المطروح على المؤرخين المحدثين ، والباحثين الحاليين بتاريخ اليمن ، والمختصين بتاريخ الدولة الرسولية . هل أنصف التاريخ السلطان الملك الناصر أم ظلمه ؟ .

الهوامش :

محمد بن يحيى الفيفي ؛ الدولة الرسولية في اليمن ، دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية ٨٠٣ ــ ٨٢٧ هـ / ١٤٠٠ ـ ١٤٢٤ م ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م ــــ ١٤٢٥ هـ ، الدار العربية للموسوعات ـ بيروت ـ لبنان .

عبد الله محم الحبشي ؛ الصوفية والفقهاء في اليمن ، سنة الطبعة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، مكتبة الجيل الجديد ـ صنعاء القاضي إسماعيل بن علي الأكوع ؛ الدولة الرسولية في اليمن ٦٢٦ ــ ٨٥٨ هـ /١٢٢٨ ــــ ١٤٥٤ م ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ـ عدن ـ الجمهورية اليمنية

منبر التراث

حي القطيع

محمد زكريا

في طي المجهول

القطيع حي مشهور من أحياء عدن القديمة (كريتر) وتوجد فيه مقبرة سميت باسمه ، مقبرة القطيع ولكن تاريخها مازال في طي المجهول لا يعرف الآثاريون أو المؤرخون عنها أية معلومات يمكن أن تقودنا إلى تاريخ ذلك الحي . ولقد حاولنا البحث في مؤلفات المؤرخين القدامى وعلى وجه الخصوص مؤرخ عدن عبد الله الطيب بامخرمة المتوفى سنة (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) ولكن مع الأسف لم نعثر من قريب أو بعيد عن تاريخ هذا الحي . والحقيقة لا ندري على وجه الدقة هل كان حي القطيع من الأحياء القديمة في المدينة ؟ . وهل نشأ في عهد إحدى الدول اليمنية المركزية التي تتابعت على حكم عدن مثل الدولة الصليحية وبعدها دولة بني زريع التي حكمت عدن نحو أكثر من خمسين عاما والذين كانوا ولاة للصليحيين فيها ثم صاروا الحكام الفعليين فيها بعد أن ولت شمسهم عن سماء اليمن السياسي ولا نعلم على وجه اليقين هل كان لذلك الحي نشاطاً (ما) في حياة المدينة ، هل كان سوقاً وإذا كان سوقا ماذا كان يباع فيه أو ماذا كان يشتهر في بيعه ؟ . مثل سوق الزعفران الذي كان يشتهر ببيع الماء والحطب ولقد ذكر ذلك السوق في عهد بني زريع ، ومن الأسواق المشهورة والقديمة في عدن القديمة سوق البز (القماش) الذي تباع فيه كافة الأقمشة الواردة من بلاد الهند ، والسند ، والشام ، والمغرب وأيضاً سوق الطعام الذي كان تأتيه السلع والبضائع من كل مكان . وقيل أن التجار من مختلف البلدان كانوا يجيئون إليه وينقلون منه ما يحتاجونه من سلع خاصة بالأطعمة المتنوعة مثل أنواع البهارات المتنوعة القادمة من الهند . وإلى جانب هذين السوقين كان يوجد سوق السلاح ، وسوق العطارين .

أحياء عدن القديمة

والحقيقة لقد طفت على وجه عدن أحياء قديمة مثل حي الحسين أو حي الشاذلية وهو الاسم القديم له في أواخر الدولة الرسولية وبداية الدولة الطاهرية . وكذلك حي أبان المشهور في عدن القديمة والتي أشارت إليه المصادر التاريخية القديمة بأنه كان في الزمن البعيد ملئ بمقابر وأضرحة الصوفية وكما هو معروف أنه بني فيه أقدم المساجد الجامعة في اليمن بل وفي العالم الإسلامي وهو جامع أبان الذي أسسه أبان بن عثمان بن عفان في عهد والده الخليفة الثالث عثمان بن عفان والذي كان أشعاع حضاري للفكر الإسلامي . ولقد ذكرت المصادر أن الإمام أحمد بن حنبل المتوفى (٢٤١هـ / ٨٥٦م) رحل إلى مسجد أبان ليتلقى العلم على يد إبراهيم بن الحكم " وكان إبراهيم هذا فقيها جليلاً طبقت شهرته الآفاق وكان قدوم الإمام أحمد إلى عدن في سنة (١٧٠هـ / ٧٨٧م)). ولكن مع الأسف لم نقف على ذكر حي القطيع في المصادر التي يمكن أن تقودنا إلى تاريخه ــ كما قلنا سابقاــ .

مسجد الحرة بهجة

والحقيقة أن الأستاذ عبد الله محيرز ، أعطانا معلومات قيمة في كتابه ((صيرة)) عن حي القطيع فهو يذكر بأنه كان يوجد في الحي مسجداً باسم الحرة البهجة وقد قامت ببناءيه ــ وهي إحدى أميرات بني زريع ــ فسمّي المسجد على اسمها ويقول بما معناه : ـ ويبدو أن هذا المسجد أندثر وتم مكانه مسجدا آخر وهو مسجد علوي بن محمد بن عيدروس المتوفى سنة (١٠٠٠هـ / ١٥٩٢م) والجدير بالذكر أن ذلك المسجد مازال ماثلاً للعيان . ولقد أعيد بناؤه من جديد ،فتغيرت ملامحه الأصلية والأصيلة الذي كان عليها في الزمن البعيد .

سوق الخيول

ويذكر عبد الله محيرز ، بأنه كانت تقام مواسم الخيل في حقات خلف جبل صيرة والذي كان يعتبر امتداداً لحي القطيع . وكان يقام في تلك المنطقة الصفقات التجارية ، ويجتمع فيها الباعة ، والدلالون . ونستشف من ذلك أن حي القطيع من المحتمل أنه يعود تاريخه إلى عهد حكم بني زريع الذين حكموا عدن نحو أكثر من خمسين عاما من ناحية وأن شهرة ذلك الحي استمرت إلى عهد أواخر الدولة الطاهرية.

مقترح

وكيفما كان الأمر ، فإننا نأمل من الدراسات الأثرية الكشف عن حي القطيع وغيرها من أحياء عدن العتيقة والذي مازال الكثير منها يكتنفها المجهول لنخرج بمعلومات جديدة وقيمة عن تاريخ تلك المدينة الضاربة جذورها في أعماق تاريخ اليمن .